فإن قُلْتَ: بم تعلق حتى وجعل ما بعده غاية له؟ **قُلْتُ:** بقوله: يكونون عليه لبدًا على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾.

﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ من يوم بدر وإظهار الله له عليهم أو من يوم القيامة. **﴿فسيعلمون﴾** حينئذٍ أنهم **﴿أضعف ناصرًا وأقل عددًا﴾**، ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده كأنه قال: لا يزالون على ما هم عليه **﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾** قال المشركون: متى يكون هذا الموعود إنكارًا له؟ فقيل: **﴿قل﴾** إنه كائن لا ريب فيه فلا تنكروه.

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾.

فإنّ الله قد وعد ذلك وهو لا يخلف الميعاد، وأما وقته فما أدري متى يكون لأنّ الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿أم يجعل له ربي أمدًا﴾**؟ والأمد يكون قريبًا وبعيدًا، ألا ترى إلى قوله تود لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا! **قُلْتُ:** كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد فكأنه قال: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية. أي: هو.

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾.

﴿عالم الغيب فلا يظهر﴾ فلا يطلع، و **﴿من رسول﴾** تبيين لمن ارتضى يعني: أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوّة خاصةً لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين[1] فليسوا برسل.

إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾.

وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط. **﴿فإنه يسلك من بين يديه﴾** يدي من ارتضى للرسالة **﴿ومن خلفه رصدًا﴾** حفظةً من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه. وعن الضحاك: ما بعث نبيّ إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك.

لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾.

﴿ليعلم﴾ الله **﴿أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾** يعني: الأنبياء. وحد أولاً على اللفظ في قوله: من بين يديه ومن خلفه، ثم جمع على المعنى كقوله: **﴿فإنّ له نار جهنم خالدين﴾**[2] والمعنى: ليبلغوا رسالات ربهم كما هي محروسة من الزيادة والنقصان، وذكر العلم كذكره في قوله تعالى: **﴿حتى نعلم المجاهدين﴾**، وقرئ: ليعلم على البناء للمفعول. **﴿وأحاط بما لديهم﴾** بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفًا فهو مهين عليها حافظ لها. **﴿وأحصى كل شيء عددًا﴾** من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه، وعددًا حال أي: وضبط كل شيء معدودًا محصورًا، أو مصدر في معنى إحصاء، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنيّ صدّق محمدًا ﷺ وكذب به عتق رقبة»[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المزمل مكية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾.

﴿المزمل﴾ المتزمّل وهو الذي تزمل في ثيابه أي: تلفف بها بإدغام الباء في الزاي. ونحوه: المدثر[4] في المتدثر. وقرئ: المتزمّل على الأصل، والمزّمل بتخفيف الزاي وفتح الميم وكسرها على أنه اسم فاعل أو مفعول من زمله وهو

---

(1) قال أحمد: ادعى عاماً واستدل خاصاً، فإنّ دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها، والمدلول عليه بالآية: إبطال اطلاع الوليّ على الغيب خاصة، ولا يكون كرامة وخارق العادة إلا الاطلاع على الغيب لا غير، وما القدرية إلا ولهم شبهة في إبطالها، وذلك أنّ الله عز وجل لا يتخذ منهم ولياً أبداً، وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم قط، فلا جرم أنهم يستمرون على الإنكار، ولا يعلمون أنّ شرط الكرامة الولاية، وهي مسلوبة عنهم اتفاقاً، وأما سلب الإيمان فمسألة خلاف، فما أطمع من يكون إيمانه مسألة خلاف وهو يريد الكرامة؛ لأنه لم يؤتها، والله الموفق.

(2) سورة الجن، الآية: 23.

(3) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في تفاسيرهم: 4/104.

(4) قال أحمد: أما قوله الأوّل: أنّ نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها، واستشهاده بالأبيات المذكورة فخطأ وسوء أدب، ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله الزمخشري، فقد قال العلماء: أنه لم يخاطب باسمه نداء، وأنّ ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراماً له وتشريفاً، فأين نداؤه بصيغة مهجنة من ندائه باسمه، واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذمّاً في جفاة حفاة من الرعاء، فأنا أبرأ إلى الله من ذلك وأربابه ﷺ، ولقد ذكرت بقوله:

أوردها سعد وسعد مشتمل =

الذي زمله غيره أو زمل نفسه. وكان رسول الله ﷺ نائمًا بالليل متزمّلاً في قطيفة، فنبه ونودي، بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمّل في قطيفة واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن. ألا ترى إلى قول ذي الرمّة:

وكائن تخطت ناقتي من مفازة ... ومن نائم عن ليلها متزمّل

يريد الكسلان المتقاعس الذي لا ينهض في معاظم الأمور وكفايات الخطوب ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ونحوه:

فأنت به حوش الفؤاد مبطنًا ... سهدًا إذا ما نام ليل الهوجل

وفي أمثالهم:

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل

فذمه بالاشتمال بكسائه وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس وأمر بأن يختار على الهجود التهجد، وعلى التزمل التشمر والتخفف للعبادة. والمجاهدة في الله لا جرم أنّ رسول الله ﷺ قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر وأقبلوا على إحياء لياليهم ورفضوا له الرقاد والدعة، وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم فخفف عنهم. وقيل: كان متزملاً في مرط لعائشة يصلي. فهو على هذا ليس بتهجين بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التي كان عليها، وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه. وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت ما كان تزميله قالت: كان مرطًا طوله أربع عشرة ذراعًا، نصفه عليّ وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلي. فسئلت: ما كان؟ قالت: والله ما كان خزًا ولا قزًا ولا مرعزي ولا إبريسمًا ولا صوفًا كان سداه شعرًا ولحمته وبرًا[1]. وقيل: دخل على خديجة وقد جئت فرقًا أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد فقال: زملوني زملوني. وحسب أنه عرض له فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل: يا أيها المزمل[2]. وعن عكرمة: أنّ المعنى يا أيها الذي زمل أمرًا عظيمًا أي: حمله، والزمل الحمل، وازدمله احتمله.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١﴾.

وقرئ*: قم الليل بضم الميم وفتحها. قال عثمان بن جني: الغرض بهذه الحركة التبلغ بها هربًا من التقاء الساكنين فبأي الحركات تحرّك فقد وقع الغرض.

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾.

﴿نصفه﴾ بدل من الليل وإلا قليلاً استثناء من النصف كأنه قال: قم أقل من نصف الليل. والضمير في منه وعليه للنصف، والمعنى: التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه، وإن شئت جعلت نصفه بدلاً من قليلاً وكان تخييرًا بين ثلاث. بين قيام النصف بتمامه، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل، وإن شئت قلت لما كان معنى قم الليل إلا قليلاً نصفه إذا أبدلت النصف من الليل قم أقل من نصف الليل رجع الضمير في منه وعليه إلى الأقل من النصف، فكأنه قيل: قم أقل من نصف الليل، أو قم انقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلاً، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث. ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلاً وفسرته به أن تجعل قليلاً الثاني بمعنى نصف النصف وهو الربع: كأنه قيل: أو انقص منه قليلاً نصفه، وتجعل المزيد على هذا القليل، أعني الربع نصف الربع، كأنه. قيل: أو زد عليه قليلاً نصفه، ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقةً تتمة الثلث فيكون تخييرًا بين النصف والثلث والربع.

فإن قُلْتَ: أكان القيام فرضًا أم نفلاً؟ **قُلْتُ:** عن عائشة رضي الله عنها أنّ الله جعله تطوّعًا بعد أن كان فريضة. وقيل: كان فرضًا قبل أن تفرض الصلوات الخمس، ثم نسخ بهنّ إلا ما تطوّعوا به. وعن الحسن: كان قيام ثلث الليل فريضة وكانوا على ذلك سنة وقيل: كان واجبًا وإنما وقع التخيير في المقدار، ثم نسخ بعد عشر سنين. وعن الكلبي: كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين. ومنهم من قال: كان نفلاً بدليل التخيير في المقدار. ولقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾[3] ترتيل القرآن قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات حتى يجيء المتلوّ منه شبيهًا بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان وألا يهذه هذا ولا يسرده سردًا. كما قال عمر رضي الله عنه: شر السير الحقحقة، وشر القراءة الهذرمة حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر إلا لص[4] وسئلت عائشة رضي الله عنها عن

= ما وقفت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري، ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل، وإجحافه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه حتى سماه ابن خروف البرنامج، وأنشد عليه

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضي الله عنها فبعيد، فإن السورة مكية وبنى النبيّ ﷺ على عائشة رضي الله عنها بالمدينة، والصحيح في الآية ما ذكره آخراً؛ لأنّ ذلك كان في بيت خديجة عندما لقيه جبريل أوّل مرة، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة، والله أعلم.

(1) قال الزيلعي: غريب: 4/107.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: 3) (الحديث رقم: 3)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 252 ـ 160).

(3) سورة الإسراء، الآية: 79.

(4) قال الزيلعي: غريب، وساق حديث أخرجه الخطيب البغدادي في أوائل، كتاب: الجامع لآداب الراوي والسامع 4/108.

قراءة رسول الله ﷺ فقالت: لا كسرتكم هذا لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها. و﴿ترتيلاً﴾ تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه ما لا بد منه للقارئ.

إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾.

هذه الآية اعتراض ويعني بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين وخاصة على رسول الله ﷺ لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته، فهي أثقل عليه وأبهظ له. وأراد بهذا الاعتراض أنّ ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي ورد بها القرآن، لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدو فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربد له جلده[1]، وعن عائشة رضي الله عنها: رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفض عرقًا[2]. وعن الحسن: ثقيل في الميزان، وقيل: ثقيل على المنافقين، وقيل: كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف.

إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾.

﴿ناشئة الليل﴾ النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض وترتفع، من نشأت السحابة إذا ارتفعت ونشأ من مكانه ونشز إذا نهض قال:

نشأنا إلى[3] خوص بري نيها السرى ... والصق منها مشرفات القماحد[4]

وقيام الليل على أنّ الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة كالعافية، ويدل عليه ما روي عن عبيد بن عمير: قلت لعائشة: رجل قام من أوّل الليل أتقولين له قام ناشئة؟ قالت: لا، إنما الناشئة القيام بعد النوم. ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع[5]، أو العبادة التي تنشأ بالليل. أي: تحدث وترتفع، وقيل: هي ساعات الليل كلها لأنها تحدث واحدة بعد أخرى، وقيل: الساعات الأول منه، وعن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه كان يصلي بين المغرب والعشاء ويقول: أما سمعتم قول الله تعالى: ﴿إنّ ناشئة الليل﴾. هذه ناشئة الليل ﴿هي أشد وطئا﴾ هي خاصة دون ناشئة النهار أشدّ مواطئة، يواطئ قلبها لسانها إن أردت النفس، أو يواطئ فيها قلب القائم لسانه إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات أو أشدّ موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص، وعن الحسن: أشدّ موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق. وقرئ أشدّ وطأ بالفتح والكسر، والمعنى: أشدّ ثبات قدم وأبعد من الزلل أو أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار. من قوله عليه السلام: اللهم اشدد وطأتك على مضر[6] ﴿وأقوم قيلا﴾ وأشدّ مقالاً وأثبت قراءةً لهدوّ الأصوات، وعن أنس رضي الله عنه أنه قرأ: وأصوب قيلاً. فقيل له: يا أبا حمزة إنما هي وأقوم. فقال: إنّ أقوم وأصوب وأهيأ واحد. وروى أبو زيد الأنصاري عن أبي سرار الغنوي أنه كان يقرأ: فحاسوا، بحاء غير معجمة، فقيل له: إنما هو جاسوا بالجيم، فقال: وجاسوا وحاسوا واحد.

إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾.

﴿سبحا﴾ تصرفًا وتقلبًا في مهماتك وشواغلك ولا تفرغ إلا بالليل، فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل. وأما القراءة بالخاء فاستعارة من سخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه، لانتشار الهم وتفرّق القلب بالشواغل. كلفه قيام الليل ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه وهو أن الليل أعون على المواطأة وأسدّ للقراءة لهدوّ الرجل وخفوت الصوت، وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد. وقيل: فراغًا وسعةً لنومك وتصرفك في حوائجك. وقيل: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾.

﴿واذكر اسم ربك﴾ ودم على ذكره في ليلك ونهارك واحرص عليه، وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن ودراسة علم وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعة ليله ونهاره. ﴿وتبتل إليه﴾ وانقطع إليه.

فإن قُلْتَ: كيف؟ قيل: ﴿تبتيلا﴾ مكان تبتلاً؟ **قُلْتُ**: لأنّ معنى تبتل بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل.

رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾.

﴿رب المشرق والمغرب﴾ قرئ مرفوعًا على المدح ومجرورًا على البدل من ربك. وعن ابن عباس: على القسم بإضمار حرف القسم. كقولك: الله لأفعلنّ وجوابه ﴿لا إله إلا هو﴾ كما تقول: والله لا أحد في الدار إلا زيد، وقرأ ابن عباس: رب المشارق والمغارب ﴿فاتخذه وكيلاً﴾ مسبب على التهليلة لأنه هو وحده هو الذي يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور. وقيل: وكيلاً كفيلاً بما وعدك من النصر والإظهار.

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 1/238.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الوحي، (الحديث رقم: 2)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (الحديث رقم: 86 ـ 2333).

(3) خوص: جمع خوصاء، وهي غائرة العين.

(4) القمحدوة: ما خلف الرأس.

(5) تقدم في سورة الأنبياء.

(6) قال أحمد: فإن حملت الناشئة على النفس فإضافة المواطأة إليها حقيقة، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع المجازي.

الهجر: الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافاة. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه قوم ونضحك إليهم وإن قلوبنا لتقليهم[1]، وقيل: هو منسوخ بآية السيف.

وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾.

إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه، أو بعدوّ يشتهي أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه، قال: ذرني وإياه، أي: لا تحتاج إلى الظفر بمرادك ومشتهاتك إلا أن تخلي بيني وبينه بأن تكل أمره إلي وتستكفينيه، فإنّ في ما يفرغ بالك ويجلي همك. وليس ثم منع حتى يطلب إليه أن يذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض كأنه إذا لم يكل أمره إليه فكأنه منعه منه، فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه. وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء باقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه. النعمة بالفتح التنعم بالكسر الإنعام وبالضم المسرة. يقال: نعم ونعمة عين، وهم صناديد قريش وكانوا أهل تنعم وترفه.

إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾.

﴿إنّ لدينا﴾ ما يضاد تنعمهم: من أنكال وهي القيود الثقال. عن الشعبي: إذا ارتفعوا استفلت بهم الواحد نكل ونكل، ومن جحيم وهي النار الشديدة الحر والاتقاد.

وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾.

ومن طعام ذي غصة وهو الذي ينشب في الحلوق فلا يساغ. يعني: الضريع وشجر الزقوم. ومن عذاب أليم من سائر العذاب فلا ترى موكولاً إليه أمرهم مونورًا بينه وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام. وروي أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية فصعق[2]. وعن الحسن أنه أمسى صائمًا فأتى بطعام فعرضت له هذه الآية فقال: ارفعه، ووضع عنده الليلة الثانية فعرضت له فقال: ارفعه. وكذلك الليلة الثالثة. فأخبر ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فجاؤوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾.

﴿يوم ترجف﴾ منصوب بما في لدينا، والرجفة الزلزلة والزعزعة الشديدة. والكثيب الرمل المجتمع، من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول في أصله ومنه الكثبة من اللبن. قالت الضائنة: أجز جفالاً وأحلب كثبًا عجالاً. أي: كانت مثل رمل مجتمع هيل هيلاً أي: نثر وأسيل. الخطاب لأهل مكة.

إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾.

﴿شاهدًا عليكم﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم.

فإن قُلْتَ: لم نكر الرسول ثم عرف؟ **قُلْتُ:** لأنه أراد أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف إشارة إلى المذكور بعينه.

فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾.

﴿وبيلاً﴾ ثقيلاً غليظًا من قولهم: كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله، والوبيل العصا الضخمة ومنه الوابل للمطر العظيم.

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾.

﴿يومًا﴾ مفعول به أي: فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهوله إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحًا. ويجوز أن يكون ظرفًا أي: فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا؟ ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم. أي: فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء لأنّ تقوى الله خوف عقابه. ﴿ويجعل الولدان شيبًا﴾ مثل في الشدّة، يقال: في اليوم الشديد يوم يشيب نواصي الأطفال، والأصل فيه أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب قال أبو الطيب:

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

وقد مرّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، وأصبح وهو أبيض الراس واللحية كالثغامة، فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة، والشيب.

ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾.

﴿السماء منفطر به﴾ وصف لليوم بالشدّة أيضًا، وأنّ السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه فما ظنك بغيرها من الخلائق. وقرئ: منفطر ومتفطر، والمعنى: ذات انفطار أو على تأويل السماء بالسقف أو على السماء شيء منفطر. والباء في به مثلها في قولك: فطرت العود بالقدوم فانفطر به. يعني: أنها تنفطر بشدّة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به. ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالاً يؤدّي إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه. كقوله: ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾[3] ﴿وعده﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول والضمير لليوم، ويجوز أن

(1) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب: الأدب، باب: المواراة مع الناس. وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق، فصل في حسن العشرة (الحديث رقم: 8103).

(2) أخرجه أحمد في الزهد، وأسنده ابن عدي في الكامل، زيلعي 4/ 111.

(3) سورة الأعراف، الآية: 187.

يكون مضافًا إلى الفاعل وهو الله عز وعلا، ولم يجر له ذكر لكونه معلومًا.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾.

﴿إن هذه﴾ الآيات الناطقة بالوعيد الشديد ﴿تذكرة﴾ موعظةً ﴿فمن شاء﴾ اتعظ بها. واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية. ومعنى اتخاذ السبيل إليه التقرّب والتوسل بالطاعة.

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾.

﴿أدنى من ثلثي الليل﴾ أقل منهما وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك. وقرئ: ونصفه، وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف والثلث، وهو مطابق لما مرّ في أوّل السورة من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه وهو الثلث، وبين قيام الزائد عليه وهو الأدنى من الثلثين وقرئ: ونصفه وثلثه بالجرّ. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أدنى من الثلثين، وقرئ: ونصفه وثلثه بالجرّ. أي: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف، والثلث وهو مطابق للتخيير بين النصف وهو أدنى من الثلثين، والثلث وهو أدنى من النصف، والربع وهو أدنى من الثلث وهو الوجه الأخير. ﴿وطائفة من الذين معك﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك، ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده، وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنيًا عليه يقدّر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير. والمعنى: أنكم لا تقدرون عليه الضمير في ﴿لن تحصوه﴾ لمصدر يقدّر. أي: علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط وذلك شاق عليكم بالغ منكم ﴿فتاب عليكم﴾ عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدّر كقوله: ﴿فتاب عليكم وعفا عنكم. فالآن باشروهنّ﴾[1] والمعنى: أنه رفع التبعة في تركه عنكم كما يرفع التبعة عن التائب. وعبر عن الصلاة بالقراءة لأنها بعض أركانها كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود، يريد فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأوّل ثم نسخًا جميعًا بالصلوات الخمس. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها. قيل: يقرأ مائة آية ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن. وقيل: من قرأ مائة آية كتب من القانتين. وقيل: خمسين آية، وقد بين الحكمة في النسخ وهي تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله. وقيل: سوّى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أيما رجل جلب شيئًا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرًا محتسبًا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء[2]، وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله موتةً أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إليّ من أن أموت بين شعبتي رجل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله[3] و﴿علم﴾ استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ، ﴿وأقيموا الصلوٰة﴾ يعني: المفروضة والزكاة الواجبة، وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك، ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيًا. ﴿وأقرضوا الله قرضًا حسنًا﴾ يجوز أن يريد سائر الصدقات وأن يريد أداء الزكاة على أحسن وجه من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف إلى المستحق وأن يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال. ﴿خيرًا﴾ ثاني مفعولي وجد وهو فصل وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأنّ أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة. وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجرًا بالرفع على الابتداء، والخبر عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المزمّل دفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة»[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المدثر مكية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾.

﴿المدّثر﴾ لابس الدثار وهو ما فوق الشعار، وهو الثوب الذي يلي الجسد. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار»[5]. وقيل: هي أوّل سورة نزلت. وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ: «كنت على جبل حراء فنوديت يا محمد إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئًا فنظرت فوقي فرأيت

(1) سورة البقرة، الآية: 187.

(2) قال الزيلعي: رواه الثعلبي في تفسيره، وابن مردويه: 4/112.

(3) رواه البيهقي في الشعب، قاله الزيلعي: 4/113.

(4) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم 4/113.

(5) تقدم في آل عمران.